[٣٢] اتجاه الأحفاد نحو الأجداد

المفهوم: نرى أن علماء النفس الاجتماعي لم يلقوا الاهتمام الكافي لدور الجد والجدة في عمليات التنشئة الاجتماعية، على الرغم من أن لهما دوراً بارزاً في تلك العملية، وخاصة داخل نطاق الأسرة، فهما يقدمان للأبناء – الوالدين – الخبرة التربوية السليمة في تربية أبنائهما – الأحفاد – كما يقدمان العطف والحنان والرعاية الصحيحة لأحفادهما. إلى جانب أنهما المرجع للأبناء والأحفاد في المشورة ومعرفة الرأي السديد في كل ما يواجهونه من مشاكل الحياة.

إضافة إلى هذا، لا تنتهي وظيفة الجد أو الجدة بتربية أولادهما وتعليمهما وزواجهما، بل يظلا مسئولين عنهم وعن مشاكلهم، ويتجلى دورهما بوضوح عند مجيء الأحفاد، فيرغبان في تربيتهم كما ربى أبنائهم، وقد يتحملان مسئوليتهم كاملةً خاصة عند سفر الأبوين، أو موت إحداهما. وفي بعض الأحيان يعيش أحد الجدين أو كليهما في نطاق الأسرة كما هو الحال في معظم المجتمعات العربية الإسلامية. ومن ثم، فإن تواجد الأجداد بهذه الصورة الدائمة يؤثر بشكل ملحوظ على تصرفات وسلوكيات الأحفاد، وينحصر دور الأجداد في هذه الحالة على الملاحظة ومراقبة سلوك الأحفاد، والقيام بالتوجيه والإرشاد للأبوين أو الأحفاد مما يكون له الأثر في تصحيح مسار سلوكيات الأحفاد في أغلب الأحيان، وغالباً ما يتطبع الأحفاد في هذا الجو الأسري بطبع الأجداد.

وعليه، نجد أن للأجداد عدة أدوار، نذكر منها ما يلي:

- للأجداد دور كبير في التواصل بين الأجيال وتشرب الأحفاد بقيم وأصالة المجتمع، كما أن لديهم القدرة على تفسير بعض الموضوعات التي قد يعجز الآباء على تفسيرها لأبنائهم – الأحفاد.
- يؤثر الأجداد بطريق غير مباشر على الأحفاد من خلال تأثيرهم في الآباء – الوالدين – وتوجيههم المستمر لهما أثناء رعايتهما الأولى لأبنائهم – الأحفاد، فكثير ما يعاني الآباء الجدد من صعوبات في تربية أبنائهم، فيتدخل الأجداد في تذليل هذه الصعوبات.
- للأجداد دور واضح في اقتراح حلول ليس فقط لمشكلات أبنائهم، بل أيضاً لمشكلات أحفادهم، فكثيراً ما يواجه الأحفاد الكثير من المشكلات الاجتماعية والنفسية، لا يستطيعون البوح بها لآبائهم، بل يستطيعون البوح بها لأجدادهم لأنهم مصدر الأمن والعطف والحنان.
- للأجداد دور عظيم في تنمية العادات السليمة للأحفاد، حيث أنهم يقومون بغرس العادات الصحية وذلك من خلال تعليم الحفيد كيفية تناول طعامه، وقضاء حاجته، والمحافظة على نظافته، كذلك تنمية الجانب الاجتماعي للحفيد، وذلك من خلال غرس روح الجماعة والتعاون بينه وبين أقرانه، وأيضاً حثه على احترام عادات وتقاليد المجتمع.
- للأجداد دور في تنمية الضمير "الوازع الديني" للحفيد في سن مبكرة، وذلك عن طريق بيان ما هو صائب وما غير ذلك، فكثيراً ما يصطحب الجد حفيده إلى المسجد وهو في سن مبكرة، وبالرغم من أن الحفيد لا يدرك ماهيات ما يحدث في المسجد من إقامة الصلاة أو غير ذلك، إلا أنه يقوم بمحاكاة المصلين التي قد تكون لها أكبر الأثر في تكوينه الأخلاقي في سنوات عمره المقبلة.

ويرى بعض الباحثين (أبو حطب، وصادق، ١٩٩٠: ٥٤٨-٥٥٠) أن الأجداد يلعبون دوراً هاماً في نسق الأسرة، فإنهم يقدمون للأجيال الصغيرة الدعم الانفعالي والنصيحة العملية بالنسبة للقيم الأساسية وأسلوب الحياة والمهنة والتربية والوالدية وغيرها. وتقوم الجدة خاصة بالوظيفة الهامة لرعاية طفل ابنتها العاملة. كما تم تحديد بعض أساليب التفاعل بين الحفيد والجد على النحو التالي:

١- التفاعل الشكلي:

وفيه يظهر الجد اهتمامه بالحفيد، ويقدم له أحياناً الهدايا والخدمات الخاصة مثل الرعاية أثناء عدم وجود الوالدين ولكنه لا يتدخل في تربية الطفل، ويترك الوالدية للوالدين.

٢- التفاعل من خلال اللهو واللعب:

وهو نمط من التفاعل غير الشكلي وفيه يقوم الجد بدور رفيق اللعب، ويتوقع لهذا الأسلوب أن يؤدي إلى علاقة وثيقة متبادلة بين الحفيد والجد.

٣- التفاعل من خلال دور الرعاية:

وهنا يقوم الجد أحياناً (ودائماً في الأغلب الجدة) بمسئوليات رعاية الطفل حيث يحلان محل الوالدين؛ وخاصة في بعض الظروف الخاصة لهما كالسفر إلى الخارج أو العمل الشاق.

٤- التفاعل من خلال السلطة:

وهنا يعتبر الجد (وخاصة الجد الرجل) مستودع الحكمة الأسرية، وقد يتطرق هذا الدور حين يقوم الجد أو الجدة بدور تسلطي في الأسرة، حيث يصبح أفرادها ومنهم الآباء الراشدون تابعين له، وهو وحده الذي يوزع الموارد والمعرفة والنصيحة للآخرين.

٥- التفاعل عن بعد:

وهنا تكون علاقات الجد مع الحفيد محدودة، فيزوره في العطلات والمناسبات الخاصة، ويقدم له الهدايا في هذه الزيارات القليلة، ولهذا فهو بالنسبة لحفيده شكل بعيد Distant Figure من الناحية الوجدانية.

وعليه تبين لنا مما تقدم ما لدور الجد في البناء النفسي للحفيد. وإذا كنا بصدد الحديث عن علاقة الجد بالحفيد فلنا في سيرة رسولنا الكريم ﷺ الأسوة الحسنة. فقد كفله جده عبد المطلب، وأغدق عليه كل حبه وأسبغ عليه جم رعايته، وكان يدنيه من مجلسه، ويربت على ظهره.

وقد زاد يُتم رسول الله ﷺ من محبة جده بعد وفاة والديه فكان لا يأكل طعاماً إلا قال: "على يا بنـــي" .. فيؤتي به إليه. وإلى جانب هذا، كان ينظر الجد – عبد المطلب إلى الحفيد – محمد ﷺ بعاطفتين: عاطفة الأبـــوة المشبوبة، التي كانت تملأ قلبه حباً، وتملأ نفسه حناناً ورقة، فهو ابن ولده عبد الله، أحب أبنائه وأثرهم عنـــده، والذي كان موته ضربة قاصمة هوت عليه فأرهقته وحملته فوق ما يطيق من الألم، وتركت في قلبـــه جرحـــاً غائراً عميقاً. فما هو أن ولد له محمد، حتى وجد فيه صورة ابنه عبد الله، فأفرغ عليه كل ما في قلبه من حـــب وحنان، حتى لم يكن يسميه إلا ابنه.

وكان مع هذه العاطفة عاطفة أخرى تزيد من فعلها وتزكيها، هي عاطفة الإعجاب والزهو بما كان يبدو عليه ﷺ من آيات العناية الربانية؛ فقد كان كل شيء فيه يدل على أنه طفل يختلف عن كل الأطفال، وأنه كـــائن له في مستقبله شأن. وقد شعر عبد المطلب هذا وتنبأ به. فما كان يتحدث عنه قط إلا بصيغة الإعزاز والإعجاب والثقة بالمستقبل العظيم الذي ينتظره (العافري، د.ت: ١٠٤-١٠٥؛ هيكل، ١٩٦٩: ١٢٩-١٣٠).

إضافة إلى هذا، تجمع الروايات التاريخية على أن عبد المطلب كان حفياً بابنه محمد، وانه كان يوليـــه من العناية والرعاية ما لا يوليه أبناءه الذين من صلبه، وكان يتفقده ويلاحظه في كل أحواله. وكأنما كان يشعر أن الأجل مقصر به عن بلوغ ما يرجوه من رعاية هذا الغلام، فكان لا يترك فرصة تُمر حتى يوصي به كل من يثق به من أهله.

ومما كان يزيد عبد المطلب تعلقاً به وحرصاً عليه، ما كان يراه من إعجاب الناس به. وبما كان يبـــدو عليه من آيات النمو؛ فقد كان ﷺ مثلاً يلفت الأنظار في كمال أدبه، وفي سمو خلقه، وفي عزوف نفســـه عـــن

للهو الباطل، وفي تنزهه عن التدني فيما يتدنى إليه الأطفال، من التهافت على الطعام والشراب، أو التطلع إلى ما يجلبه الآباء والأمهات.

وكان من الطبيعي أن يبادله محمد ﷺ هذه العاطفة، وأن يحبه أكثر مما يحب أحداً من أهله، فما أسرع انجذاب الطفل إلى ما ينحو عليه، وما أشد تعلقه به واندفاعه إليه (دويدار، ١٩٦٨: ٦٤-٦٩).

وإلى جانب هذا، لم يكن عبد المطلب جد الرسول ﷺ "بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه العزلة روح الأمل وثمرة النفس، وسليقة الطموح والعطف على الآخرين" (عمارة، ١٩٨٤: ٣٣٨).

ومن ثم، نرى أن سيدنا رسول الله ﷺ كان نعم الحفيد لنعم الجد، وتتوالى الأيام والسنين ليصبح هذا الحفيد جداً لحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب ﷺ وأرضاهم، فكان أيضاً نعم الجد. والدليل على هذا فيما راوته كتب السنة، فبينما كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس، إذ جاءه الحسين، فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر. فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر. فقال: إن ابني قد ارتحلني – أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري – فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته [رواه النسائي والحاكم].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قبّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين أبني علي ﷺ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة ما قبلت منهم أحداً قط فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: "من لا يَرحم لا يُرحم" [رواه البخاري ومسلم].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين ﷺ، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران. فنزل النبي ﷺ، فحملهما، ووضعهما بين يديه ثم قال: "إنما أموالكم وأولادكم .." فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديث ورفعتهما [رواه الترمذي].

وعليه، يتجسد لنا دور الجد التربوي في رعاية الأحفاد، وتوجيه النصح والإرشاد ونقل خبراته إليهم، فهو بمثابة ذاكرة التاريخ، فيستطيع الأحفاد أن ينهلون منه ما مضى من خبرات ليستفيدوا بها في حاضرهم ومستقبلهم في بناء شخصياتهم وتنمية مهاراتهم الاجتماعية المختلفة.

إضافة إلى هذا، قد أولى الباحثين في مجال علم النفس الاجتماعي في نطاق الأسرة العلاقة بين الوالدين – الأب والأم – والأبناء منذ الأربعينات من القرن الماضي، وما لأثر دورهما في تنمية الجوانب النفسية المختلفة للأبناء مع أننا لو رجعنا إلى تعريف الأسرة فنجدها "عبارة عن نظام أساسي وضروري، يشمل المجتمع الإنساني حينما وجد، وعليه يتوقف بقاء الجنس البشري، وبالتالي بقاء المجتمع، وهذا يعني إن كل أسرة تقوم بمهماتها الطبيعية الأساسية في كل مجتمع حيث تساهم في دور المساعدة لكل فرد من أفرادها كي يلعب كل منهم دوراً خاصاً به (خاصة الأولاد)، بحيث يتعلم الأولاد كيفية أداء الأدوار إلى سبقهم في أدائها الكبار ضمن نظام المجتمع الذين يعيشون فيه. وهم بالتالي يساهمون في تكوين أسر جديدة خاصة بهم فيما بعد" (النسوقي، ١٩٧١: ٤٤٩).

وعليه، نجد أن مفهوم الأسرة ليس يقصد به فقط الأبوين والأبناء، بل يتضمن أيضاً الأفراد الذين تربط بينهم علاقة الدم؛ وهم من وجهة نظرنا الأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والأخوة والأخوات. وربما يعزي السبب في تكريس جهود الباحثين في مجال الأسرة والتطبيع الاجتماعي على العلاقة بين الأبوين والأبناء لما لأثر الأبوين المباشر في تنمية الجوانب الشخصية للأبناء، بينما ليس لبقية أفراد الأسرة نفس هذه القدر من الدور المباشر.

ولكن نرى أنه في ظل الظروف الاجتماعية المتغيرة مثل سفر الأب أو الأم أو موت إحدهما، أصبح من الضرورة بمكان دراسة العلاقات الاجتماعية المتشابكة بين أفراد الأسرة الذين يربط بينهم رابط الدم، ومن أولى هؤلاء الأفراد هم الأجداد لتأثيرهم المباشر على الأبوين، ويمتد هذا التأثير أيضاً إلى الأحفاد.

القياس: نظراً لعدم وجود أدوات قياسية لقياس اتجاه الأحفاد نحو الأجداد، قام موسى (٢٠٠١) بالإجراءات التالية:

- عقد عدة مقابلات مع عينة قوامها مائة تلميذ وتلميذة (٦٠ تلميذاً، و٤٠ تلميذة)، ممن تراوحت أعمارهم من ١٣ – ١٥ سنة، بمتوسط حسابي قدره ١٤,٢ سنة؛ وانحراف معياري مقداره ± ٢,٦ للتعرف على اتجاه كل مفحوص نحو الجد/الجدة.
- تم تجميع الآراء المتنوعة حول اتجاه الأحفاد نحو الأجداد، وإعادة صياغتها صياغة موضوعية.
- تم عرض بنود الاتجاه نحو الأجداد بعد صياغتها المكونة من (٣٨) بنداً على عينة مكونة من ثلاثة محكمين حاصلين على درجة الدكتوراه في الصحة النفسية والقياس النفسي للحكم على صدق المضمون للاستبانة بناء على التعريف الإجرائي لمفهوم الاتجاه التالي: يعد بمثابة استعداد نفسي أو حالة عقلية وثابتة نسبياً مستمدة من البيئة، يستدل عليه من استجابة الفرد قبولاً أو رفضاً نحو اتجاه الأحفاد نحو الأجداد. وقد أسفر هذا عن حذف (٨) بنود.
- أنتهت عدد بنود الاستبانة في صورتها النهائية إلى ثلاثين بنداً، حيث روعي أن يصاغ بعضها صياغة إيجابية، وبعضها الآخر صياغة سلبية. وتتم الاستجابة على كل بند من خلال ميزان تقدير مكون من خمسة أوزان تبدأ من موافق جداً (تعطي خمس درجات)، وتنتهي بغير موافق جداً (تعطي درجة واحدة فقط). وتدل الدرجة العليا على الاتجاه الموجب نحو الجد/الجدة، بينما تدل الدرجة الصغرى على الاتجاه السالب نحو الجد/الجدة.

الصدق: تم حساب صدق استبانة اتجاه الأحفاد نحو الأجداد باستخدام طريقة الاتساق الداخلي، وذلك بتطبيق الاستبانة على عينة مكونة من ١٢٠ تلميذاً وتلميذة (٨٠ تلميذاً، و٤٠ تلميذة، المتوسط الحسابي لأعمارهم = ١٤,٥٠ سنة). وقد تم حساب معاملات الاتساق الداخلي من خلال حساب معامل الارتباط بين درجة كل بند والمجموع الكلي لدرجات بنود الاستبانة، فتراوحت معاملات الارتباط من ٠,٦٩ إلى ٠,٨٨؛ وكلها دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١.

الثبات: تم حساب ثبات استبانة اتجاه الأحفاد نحو الأجداد باستخدام معادلة ألفا لكرونباخ، فبلغ معامل الثبات ٠,٨٢.

استبانة اتجاه الأحفاد نحو الأجداد

	العبارات	موافق جداً	موافق	إلى حد ما	غير موافق	غير موافق جداً
١-	يهتم الأجداد بتوعية الأحفاد في أمورهم	( )	( )	( )	( )	( )
٢-	يدافع الأجداد عن أخطاء الأحفاد أمام أبويهم..	( )	( )	( )	( )	( )
٣-	يراعي الأجداد صحة أحفادهم البدنية والنفسية.	( )	( )	( )	( )	( )
٤-	يمنح الأجداد بعض النقود للأحفاد بهدف المساعدة	( )	( )	( )	( )	( )
٥-	يسأل الأجداد عن أحفادهم عندما يغيبون عنهم.	( )	( )	( )	( )	( )
٦-	يشعر الأحفاد بالأمان في عرض مشكلهم على أجدادهم	( )	( )	( )	( )	( )
٧-	يعتبر الأجداد مصدر إمداد الأبوين بالخبرات التربوية لتنشئة أحفادهم	( )	( )	( )	( )	( )
٨-	يتأثر الأحفاد بأسلوب أجدادهم في تربيتهم	( )	( )	( )	( )	( )
٩-	يمارس الأجداد دوراً كبيراً في علاج مشكلات أحفادهم الشخصية	( )	( )	( )	( )	( )
١٠-	يشعرني أجدادي بالمحافظة على عادات وتقاليد المجتمع والأسرة	( )	( )	( )	( )	( )
١١-	يعتبر الأجداد بديلان للوالدين في الحب والحنان	( )	( )	( )	( )	( )
١٢-	يبذل الأجداد ما في وسعهم لتقريب الآباء والأبناء حين لختلاف وجهات نظرهم	( )	( )	( )	( )	( )
١٣-	يشعر الأبناء بالأمن مع أجدادهم في غياب الأبوين	( )	( )	( )	( )	( )
١٤-	يخفف الأجداد من تسلط الآباء على أحفادهم...	( )	( )	( )	( )	( )
١٥-	يشارك الأجداد في بناء شخصية أحفادهم	( )	( )	( )	( )	( )
١٦-	يخفف الأجداد عن أحفادهم من أعراض القلق والتوتر	( )	( )	( )	( )	( )
١٧-	ينصح الأجداد أحفادهم بعدم الوقوع في الرذيلة.	( )	( )	( )	( )	( )
١٨-	الأجداد بديل طبيعي للأبوين في تربية الأحفاد.	( )	( )	( )	( )	( )
١٩-	الأجداد عوض لأحفادهم عند فقد الأبوين	( )	( )	( )	( )	( )
٢٠-	يتدخل الأجداد في تسوية الخلافات بين الأبوين والأحفاد	( )	( )	( )	( )	( )

	العبارات	موافق جداً	موافق	إلى حد ما	غير موافق	غير موافق جداً
٢١-	يرى الأحفاد في الأجداد صورة للتخلف والجمود	( )	( )	( )	( )	( )
٢٢-	يوجد انفصال بين الأجداد والأحفاد لسرعة إيقاع الحياة	( )	( )	( )	( )	( )
٢٣-	يعد الأجداد ذاكرة التاريخ لأحفادهم	( )	( )	( )	( )	( )
٢٤-	يعتبر الأجداد قدوة مثلى لأحفادهم	( )	( )	( )	( )	( )
٢٥-	يشارك الأجداد أحفادهم في أنشطتهم المختلفة.	( )	( )	( )	( )	( )
٢٦-	توجد فجوة بين تصورات الأجداد وأفكار أحفادهم عن الحياة	( )	( )	( )	( )	( )
٢٧-	يرى الأحفاد أن أفكار الأجداد رجعية ومتزمتة.	( )	( )	( )	( )	( )
٢٨-	ينعدم الانسجام الفكري بين الأجداد وأحفادهم..	( )	( )	( )	( )	( )
٢٩-	للأجداد دور في غرس القيم والمبادئ النبيلة في أحفادهم	( )	( )	( )	( )	( )
٣٠-	يساعد الأجداد أحفادهم على تنمية بعض المهارات الاجتماعية	( )	( )	( )	( )	( )